السفر العجب الى بلاد الذهب

للاب اميل ريتو اليسوعي (تابع لما سبق)

الفصل التاسع

زوجة نسيب

ولنعد الان الى الكلام على سان فرنسيسكو فنقول ان هذه المدينة العظيمة المشيدة على ساحل البحر الباسيفيكي كانت من نحو قرن قرية حقيرة بناها جماعة من المرسلين الذين ذهبوا الى تلك البلاد لنشر بشارة الانجيل ما بين سكانها المتوحشين فما كان يؤمها سوى قليل من السفن في فترات متباعدة ولم يكن هناك لا سكك حديدية ولا طرق مخطّطة. الا أن هذه القرية الخاملة ما لبثت ان تحولت بسرعة غريبة الى مدينة كبيرة لانهُ ما كاد يعرف خبر اكتشاف المناجم الذهبية في ارضها حتى تقاطر اليها مئات وألوف من المهاجرين فنزلوا على رمالها المقفرة

وفي وقت قليل شيّدوا الدور والمنازل والفنادق الكبيرة فاتسعت سان فرنسيسكو اتساعاً عظيماً وكانت تسمى قبلاً « يربابرينة » وتبلغ مساحتها اليوم مئة كيلومتر مربع وفيها عدد عديد من المهاجرين من كل صقع وجهة وكلهم مدفوعون بعامل واحد ورغبة واحدة وهي ان يحرزوا الغنى والثروة في اقرب ما يمكن من الوقت

وهذه الرغبة هي نفس التي ساقت فاضلاً الى تلك النواحي القصيّة والاماكن البعيدة التي لم يكن يُعرَف من امرها الّا اسمها. ومن ثمّ ما صدّق ان وقف القطار حتى قفز الى المحطة قرحاً محبوراً وتبعهُ نسيب متمهلاً لانهُ كان في تلك الساعة يفتكر بوالدته. ثم ان نسيباً استأجر عربة وركب مع فاضل رفيقه فاخذت تقطع بهما الشوارع والاسواق وفاضل يتلفّت ذات اليمين وذات الشمال وهو متعجب ومنذهل مما يشاهد من فخامة المدينة. وقد نسي في تلك الساعة كل ما ذاقهُ من المرارات والمشقات ولم يعد يفتكر. الّا في الحاضر

وقد مرّ الخبر ان الحالة التي كان عليها في نيويورك لم تسمح لهُ بالانتباه الى شيء

مما تحتويه تلك المدينة الزاهرة. امَّا هنا وقد اطمأنَّ بالهُ وزال كربهُ فكان ينظر الى عجلات التراموي متعجبًا من مسيرها دون ان يشاهد شيئًا يجرُّها وكان يسأل نسيبًا عن الاسلاك الكثيرة الممتدَّة في الهواء ويستفهمهُ عن فائدتها امَّا نسيب فكان يجاوبهُ ببطء وبقليل من الكلام لانهُ كان دائم البلبال حزينًا على والدته التي فارقت الدنيا في غيابه دون ان يتمكن من وداعها الاخير. وظلَّت العربة سائرة بهما حتى وقفت عند زاوية شارع مونتغوميري (Montgomerry) اكبر محلّ تجاري في الدنيا. فهناك كان منزل نسيب وفيهِ كانت امرأته ميس جني (Miss Jenny) تنتظره وهي تطالع كتابًا الى جانب النافذة وكانت امريكية بحتة ذات شعر اشقر وعينين زرقاوين ووجه كالح وقد تلقَّت دروسها في المدارس الكلية. وذلك انَّ تعليم البنات في العالم الجديد هو غير تعليمهنَّ في اوربة فهناك تتعلم البنات فنّ الجمنستيك اي الالعاب الرياضية وفنّ المسايفة وكل العلوم التي يدرسها الرجال في اوربة وتجازى الناجحات منهنَّ باحراز درجة البكالورية والدكتورية . ولا شك ان نسيبًا مع كل ما اتصفت بهِ امرأته من غزارة المعارف كان الأَولى لهُ ان يقترن بابنة سورية من بلاده من ان يتخذ لهُ امرأة عالمةً يشعر معها بانحطاطهِ ويهمل لاجلها ديانة آبائهِ. قلنا هذا لان ميس جني كانت بروتستانية فلمَّا رغب نسيب في ان يتزوجها ويتزوج معها ثروتها ضحَّى كل شيء في جنب مرامهِ حتى عقيدتهُ

سبق القول ان ميس جني كانت امريكيَّة بحتةً. وفي هذا المقام لا نرى بدًّا من اسهاب المقال في شانها لسببين الاول كونها زوجة لشخص مهمّ في روايتنا هذه والثاني لان الحديث عنها لا يخلو من فوائد جزيلة تطلع القارئ على كيفية المعيشة الامريكية

كان ابوها في اول امره معدنًا بسيطًا في مناجم كاليفورنية فبينما كان يشتغل مع رفيق لهُ قُتل رفيقهُ تجاه عينيه بفعل انفجار البارود. وظرًا لما اتَّصف بهِ من المروَّة حفر حفرة الى جانب شجرة ليدفن فيها جثة ذلك الصديق. الَّا انهُ بينما كان مجتهدًا في الحفر كشف قطعة كبيرة من الذهب يبلغ وزنها ١٥١ ليبرة وكانت في غاية الصفاء والنقاء لانها لم تكن تحوي خلا الذهب سوى شيء قليل من الكوارتز الابيض. ولما كانت القطعة ثقيلة اضطرَّهُ الحال ان يستعين بغيره من المعدنين لاجل استخراجها.

وكان لكشفها دويٌّ عظيم وقتئذٍ لانها اكبر قطعة ذهبية كُشفت حتى ذاك الوقت في مناجم كاليفورنية وثانية قطعة وجدت في الدنيا لانهُ كان قد كُشف قبلها في اوسترالية قطعة أخرى وزنها ٢٢٣ ليبرة. وقد باع المذكور القطعة المحكي عنها بمبلغ ١٨٢ الف فرنك فكان ذلك مبدأ ثروتهُ واصل غناهُ. امَّا ابنتهُ ميس جني فكانت ذكيَّة الفؤاد حديدة الفهم سريعة الغضب وقد اعتادت منذ صغرها سوقَ الكلّ الى العمل بموجب ارادتها. الا انَّها لمَّا ادركت العشرين من سنها طرأ عليها ما ذهب برونق شبابها الغضّ فتبدلت حمرة خدَّيها بالاصفرار وفقدت شهوة الاكل وبُليت بالأرق المعذّب فازعج ابواها من جراء هذه الحال وقلقا على صحَّتها واستدعيا احد مشاهير الاطبَّاء لمعالجتها فصرَّح بان ما اصابها هو حادث فيسيولوجي ناجم عن الماليخوليـة او السوداء وحكم انهُ لا بُدَّ لازالة هـذا المرض الانكليزي الاصل من تغيير تامّ في هيئـة معيشتها ومن ثمَّ أشار بتزويجها. ولكن ميس جني اوضحت في الحال ان الدواء الذي وصفهُ هو شرّ من الداء.

ثم قالت لهُ: كيف استطيع ان اقترن بشاب من هؤلاء «اليانكيز» الذين تنحصر كلّ حياتهم في الاهتمام بالاعمال التي تشغلهم دائمًا دون انقطاع ألا افتكر لي في علاج آخر

وعلى إثر ذلك جزم ابوها ان يرسلها الى المكسيك على امل ان تشفى بتبديل الهواء وترويح النفس بالاسفار. وكان لها اقارب في تلك البلاد كما كان لوالدها نظير امثاله من اصحاب الملايين اصدقاء ومعارف عديدون. الا انهُ لاهميَّة اشغاله في سان فرنسيسكو لم يكن يستطيع ان يرافقها وكذلك امرأتهُ لم تكن لترضى بمغادرة زوجها وحده ولذلك أصحبها بابنة عمّ لهُ اسمها ميسترس مورتيمر (Mistress Mortimer)

وبعد مضيّ خمسة عشر يومًا همت ميس جني بالسفر فسارت مع رفيقتهـا الى رصيف المرفإ وتبعها والدها لوداعها. وتبعها ايضًا نخبة من شبَّان المدينة الى الميناء واتزلها احدهم في زورق جميل واوصلها الى الباخرة بعد ان قدَّم لها بالنيابة عن الجميع طاقة من الزهور الطيّبة العرف وسألها قبولها فتناولتها ببشاشة وصافحتهُ مودعةً ولكن دون ان تبدو منها اقلّ علامة ارتياح وسرور

وكان على ظهر الباخرة وقتئذٍ شاب متكئ على الدرابزين يشاهد كل ما جرى من

حفلة الوداع ليس جني فهزأ بما رأى من خفّة الشبّان الاميركيين كيف يبذلون شرفهم ارضاء لفتاة متغطرسة

وتُرى من هو هذا الشاب المجهول. ولا شكّ انّ القارئ اذا امعن النظر يتذكر ذاك الوجه الذي تتقلّب عليه الهيأة الشرقيّة ويحيط به الشعر الاسود الفاحم. هو هو المستر نسيب وكان قد مضى على اقامته في الديار الاميركية عشر سنوات احرز في خلالها نجاحاً يُذكر. فانهُ كان قد صار من كبار المستخدمين لدى احدى شركات المناجم في كاليفورنية وأُرسل من قبلها الى المكسيك لبعض شؤون ماليّة واتفق سفره اليها في نفس الباخرة التي ابحرت عليها ميس جني ابنة جون اولري (John Olrey)

على أنهُ بالرغم عن تأثره السي. لاول وهلة من الفتاة الموما اليها ما زال يحدّق بصره ويهتمّ لمعرفة شأنها وينظر الى طاقة الزهور الجميلة التي كانت بيدها

وبينما هو يتطلّع فيها وكانت الباخرة قد بعدت عن الشاطئ اذ أبصرها قد رمت طاقة الزهور في البحر فعامت قليلاً على وجه الماء ثم اتت موجة فاغرقتها. وحينئذٍ تنهّدت تنهُّد من زال عنهُ كرب عظيم وجلست على احد المقاعد في ظلّ الخيمة الكبيرة وهتفت بالفرنسية قائلة :

— قد زال الماضي بل مات واندفن أيتها العنة كيلي (Kelly) فسلام على رفاتهِ

ولمعت اسرّة وجهها واشرقت عيناها وافترّ ثغرها واخذت تتنشّق بلذّة نسائم البحر وتنشرح صدراً من مشاهد المياه

فعرف المستر نسيب ان رفيقته في السفر تتكلّم الافرنسيّة وقال في نفسهِ انها كما حكمتُ عليها لاوّل وهلة دون قلب ولا عاطفة ولكن لا بُدّ من بذل الجهد لاستمالتها ومكالمتها لعلّي اتصل الى نتيجة. ومن ثمّ لم يألُ جهداً طول ذاك النهار في التقرّب اليها واسترضائها والقيام بكل خدمة يستطيعها لاستخلاص مسرّتها. وهكذا حصل بوقت قريب على ثقة ميسترس مورتيمر التي ابتهجت برفقتهِ كثيراً لانها تلقّت منهُ كل الاستعلامات اللازمة عن البلاد التي كانت ذاهبةً اليها هي وابنة اختها

امّا ميس جني فكانت تقلّ من الكلام وتكثر من السمع وتكتفي باظهار استحسانها باشارات عينيها

غير أنّها ما لبثت ان عطفت الى نسيب كما عطف اليها وشُغف كل منهما بالآخر

شغفاً عظيماً فصارا يقضيان طول نهارهما وقسماً من ليلهما وهما يتحدثان ولا يرتويان

أما ميترس مورتيمر فانها ابتهجت من جهة لانقياد ذاك القلب المستعصي الى داعي المحبة وخافت من جهة أخرى مساءة ابوي الابنة لحصول ذاك التحاب دون رضاهما. ولكنها رأت ان المانعة لا تجدي شيئاً فتجلدت وصبرت. وبينما كان نسيب وميس جني ذات مساء يتمشيان على ظهر السفينة وقد صفا اديم الجو وطاب النسيم باح نسيب للفتاة ببغية الاقتران بها فما كان منها الا ان صافحته بيده قائلة بكل صراحة: اني رضيتك لي قريناً ولا اريد عنك بديلاً

وقد مر الخبر ان ميس جني كانت قد آلت ان لا تقترن باحد من الشبان الاميركيين فجاء تصريح لنسيب بما صرحت به بداية لاتمام حلفها

ولما انتهى الجميع الى مكسيكو كان نسيب يذهب لقضاء اشغاله وانجاز شؤونه ويعود الى معاشرة ميس جني لمحادثتها لانها كانت قد صارت خطيبته. ففي ذات يوم خرج الاثنان لجولة في ضواحي مكسيكو وهناك حدث من عناد ميس جني ما لو كان مع غير نسيب لقطع كل علاقة معها وتركها وشأنها غير سائل عنها. ولكن نسيب كان قد عزم على اجتناب كل ما من شأنه ان يؤدي الى ازعاجها خوفاً من ان يفوته الحظ الذي سيلقاه من غناها وثروتها

وبيان ذلك انهما بينما كانا يقطعان الجسر الممتد فوق نهر هورتا وهما مبتهجان مما يشاهدان من المناظر البديعة ابصرت الفتاة زهرة جميلة ذات اوراق عريضة فصرخت بنسيب قائلة:

— اما ترى هذه الزهرة الجميلة في عبر النهر هلم واتني بها

قال: « يوجد في هذه الجهة ازهار مثلها بل احسن ». ثم اسرع وقطف لها زهرة مثل التي شاهدتها

ولكن جني حملقت فيه وكادت تتميز منه غيظاً وقالت:

— لا أريد هذه فانها لا تعجبني والزهرة التي أريدها هي التي أريدها

— ولكن كيف السبيل اليها والنهر عميق والمياه غزيرة. وفي يقيني انك لا تريدين ان اعرض بنفسي للهلكة احرازاً لزهرة قد اتيتك بمثلها

اما ميس جني فنظرت اليه شزراً وقالت: أريد هذه ولا أريد سواها فاذا كنت

ترى النهر عميقًا والمياه غزيرة فانت حرّ ان تعمل كما تشاء ولكني لا استطيع ان اقترن برجل يخاف ان يعرّض حياته للخطر اكرامًا لخطيبته

فحينئذٍ اقتحم نسيب الخطر وتعلّق ببعض شجيرات نابتة في الحدود واخذ يقفز من صخر الى صخر والحجارة تتفلّت من تحت رجليه وتسقط في النهر وكانت جني تنظر اليه وهي مرتعشة مصفرة وخائفة من ان يلمّ به ضرر لان تلك العاطفة العنادية كانت قد فارقتها وثاب اليها صفاء الذهن فاعلمها بخطإها

واخيرًا وصل نسيب بعد اللتيا والتي الى مجرى النهر فغاص فيه سباحةً . وكان قلب جني يتقطع خوفًا عليه من الغرق . غير انهُ ادرك الضفة الاخرى دون ان يصيبهُ ضرر فقطف الزهرة المبتغاة وحملها باسنانه وعاد سباحة الى حيث اتى فسرّت جني من شجاعته ومبادرته الى قضاء رغبتها مع علمها بانّها ارتكبت غلطًا . عظيمًا الّا انّها منذ ذاك الوقت لم تعد ترتاب في خلوص وداد خطيبها فما وصلت الى سان فرنسيسكو حتّى كشفت لابويها رغبتها في الزواج بنسيب فلم يجدا بدًّا من مطاوعتها

(ستأتي البقية)

مطبوعات شرقية جديدة

LES MONNAIES AUTONOMES DE BERYTE (PHÈNICIE)

par le Dr Jules Rouvier, 40 pages, Paris, 1898

نقود بيروت في زمن استقلالها

ما كدنا ننتهي من اطراء تأليف الدكتور رويه في مسكوكات اروَاد حتّى اتحفنا العلاّمة المذكور بمقالة ضافية الذيل جزيلة الفوائد ضمّنها البحث عن نقود بيروت القديمة في عهد استقلالها . ومن جملة المسائل الغامضة التي اماط عنها القناع في اثناء هذه النبذة المستحسنة انهُ كان لبيروت مصنعٌ تضرب فيه النقود منذ القرن الثالث قبل المسيح يشهد على ذلك عدّة مسكوكات تمثّل الاسكندر ذا القرنين وبطليموس الثالث (٢٤٧—